

الفصل الرابع

ولم تحاول أم خالد أن تصرف ابنها عن هذا الزواج، ولا أن تنفرد منه. وما كان لها أن تفعل، فطاعة الزوج واجبة، وطاعة الآباء برٌّ بهم، وقد أطاعت زوجها كارهة، فما ينبغي لها أن تُثير ابنها على أبيه، ولا أن تغريه بالعقوق. على أنَّها نصحت لابنها آخر الأمر، فلم تبالغ في الثناء على خطيبته، ولم تزعم له أنها رائعة الحسن بارعة الجمال، وإنما كانت تتحدث إليه بأنَّ الشباب لا ينبغي أن يلتمسوا عند أزواجهم جمالاً ولا حسنًا؛ فإنَّ الجمال فتنة والحسن محنة، ويوشك الذي يلتمس الحسن والجمال عند زوجه أن يعرض نفسه لكثير من المكروه، إنما يلتمس الشاب عند امرأته قرينة تؤنس وحدته، وأمَّا ترزقه الولد، ومدبرةً لبيته ومربيةً لبنيه. والواقع من الأمر أن ابنها كان يسمع لها معرضًا عن أكثر ما كانت تقول؛ فهو لم يكن يفكر في جمال ولا في حسن، ولم يكن يحفل بالولد ولا بتدبير أمر المنزل، ولم يكن يشفق من وحدة ولا يبتغي أنيسًا، وإنما كان يطيع أمر الشيخ ليس غير، وقد أمره الشيخ أن يتزوج فهو يتزوج، فأما ما بعد ذلك فله وقته وإبانه.

وكان الفتى منذ هبط إلى القاهرة قليل العناية بالخطبة وأحاديثها، والزواج وما كان يُعد له، منصرفًا أشد الانصراف إلى هذه المساجد الكثيرة التي استقرَّ فيها الأولياء وأهل البيت، يلم بأحدها فلا ينصرف عنه حتى يلمَّ بأحدها الآخر، قارئًا في هذا مصليًا في ذاك مطوفًا ومتمسحًا على كل حال بما فيها من المشاهد والمقامات، مستمعًا لما كان يُلقي هنا وهناك من دروس التفسير والحديث ومن الوعظ والإرشاد، منتفعًا بما كان يسمع، مدخرًا في قلبه من هذا كله الأعاجيب، ولم يكن النهار يكفيه ليُرضي حاجته من هذه الزيارات، فقد كان يُنفق فيه شطرًا من الليل، ولا يعود إلى أبويه إلا حين يهَمَّان أن يأويا إلى غرفة نومهما، وقد خطر للفتى هذا خاطر العجيب، وهو أن يختم القرآن في طائفة من هذه المساجد الكبرى، فختمه في مسجد سيدنا الحسين، ومسجد السيدة زينب، ومسجد الإمام